

م الموضوعات الإسلامية - م الموضوعات متفرقة - المحاضرة ٢٤ : رد على رسالة سائل تتعلق برأي الأستاذ عن الحجاب وسفر الفتيات ..

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-١٠-٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إناك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

العصمة لرسول الله وحده :

أيها الأخوة الكرام، موضوع هذا الدرس، أو لعله جزء من درس، رسالة وصلتني يوم الجمعة، قرأتها، فيها ملاحظة حول كلمة قلتها في درس جمعة سابق، وقبل الحديث عن هذه الكلمة التي قلتها، وكيف فهم منها أشياء ما أردتها، وما أتوقع أن يفهمها أحد بالشكل الذي فهمها، على كل في هذه الرسالة كلمة تقول: يجب أن توضح موقفك من هذه القضية وأن توضح موقف الشرع؟! أنا والله أستجيب إلى أي اعتراض، وأستجيب إلى أي نقد، وسأقول لكم هذه الحقائق: والله ما من كلمة سأقولها إلا وأنا مؤمن بها، ما من أحد أصغر من أن ينقل، وما من أحد أكبر من أن يُنقد، ونحن نعتقد أن في العالم كله، أو في عالمنا الإسلامي رجالاً واحداً معصوماً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، معصوم بمفرداته بينما أمته معصومة بمجموعها، فكل رجل يؤخذ منه ويُردد عليه إلا صاحب القبة الخضراء، ما جاءنا عن رسول الله فعلى العين والرأس، وما جاءنا عن أصحابه فعلى العين والرأس، وما جاءنا عن التابعين فعلى العين والرأس؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام شهد لهذه العصور بالخيرية، وما جاءنا عن سواهم فنحن رجال وهم رجال.

إذا العصمة لرسول الله وحده، أما أمته فمعصومة بمجموعها، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: لا تجتمع أمتي على خطأ النبي معصوم والولي - ونرجو أن تكون من أولياء الله - محفوظ، ومعنى محفوظ أنه لا يضره خطوه، بمعنى أنه يعود إلى الحق سريعاً، ويستغفر كثيراً، ويعود إلى الجادة التي ينبغي أن يكون عليها، وهذا مبدأ، وأي إنسان يُلغي الاعتراض أو المعارضة، يلغي التقدّم ينتهي، والإنسان يرقى مادام يُصنف إلى أي نقد، الرسالة قاسية جداً، ومع ذلك أنا أشكر أصحابها، مع أنه أغفل اسمه، أشكر أصحابها لأن غيرته تشفع له بقوته.

القصة أَنِّي سمعت ثَنَاءً عَطْرًا مِنْ أَحَدِ عُلَمَاءِ دِمْشَقَ عَنْ كِتَابٍ يَقْصِنَ حَيَاةَ رَجُلٍ مِنْ أَمْرِيْكَا مُلْحِدٍ اهتدى إلى الإسلام، وبعد أن اهتدى إلى الإسلام قال: لعل ابنتي تسألي يوماً ما: نحن مسلمون على شاكلتك فلماذا أسلمت؟ فألفَ هذا الكتاب، والكتاب تُرْجَمَ بأحد دور النشر بدمشق، وبيعَ وقدِّمت لي نسخة هدية قرأتها فتأثرت بها كثيراً، ومن دواعي تأثيري بها أَنِّي جعلتها محوراً لأربعة دروس في جامع العثمان.

هذا الإنسان الملحد الذي نشأ ملحداً، وكان متقدقاً تفوقاً رائعاً في اختصاصه؛ كيف أنه أسلم، ويوم كنت في أمريكا سمعت أنه من أكثر الدعاة إلى الإسلام! من الإلحاد إلى الدعوة إلى الله، وكانت أتمنى أن أُتَقِّيَّهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مَسَافَةً بَيْنِي وَبَيْنِهِ حِينَما كُنْتُ مَسَافِرًا.

في درس جماعة سابق فيما ذكرت أنَّ هذا الإنسان الملحد سبب إسلامه يعود إلى أنَّ فتاةً محجبةً حِجَاباً كاملاً والوقت صيف والنساء في أمريكا شبه عرايا كما قال عليه الصلاة والسلام:

(كاسيات عاريات مميات مائلات))

[مسلم عن أبي هريرة]

فهذا الإنسان الملحد رأى هذه الفتاة ترتدي على خلاف كلِّ الفتيات، ثياباً محسومة، وأنا قلت محجبةً بالمفهوم عند هذا الإنسان، وقال في كتابه: إنَّه نظر إليها فشعرَ أَنَّهَا امرأة مقدسة لأنَّها تطلق من قناعات على خلاف كلِّ قناعات الفتيات الالاتي حوله، وأنَّه شعر بحاجةٍ كُبرى إلى أن يعينها في سُؤالها في الرياضيات، ثمَّ لَقِيَتْهَا لَمْ يَجِدْ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا وَجْهَهَا؛ هذا الذي قرأته وهذا الذي قلتُه، وانتهى الأمر، إلا أَنِّي لم أتوقع أنَّ واحداً من المستمعين يُظْنَ أَنِّي أَفَرَّ أَنْ تذهب الفتاة إلى هناك لِتَدْرِسَ الرِّياضِيَّاتَ وَتَعِيشَ هُنَاكَ، وكأنَّيْ أَمْدَحُ هَذَا، المَوْضُوعُ لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِالْفَتَاهِ، أَلِّيْسَ فِي أَمْرِيْكَا نَسَاءُ مُسْلِمَاتٍ؟ فِيهَا ثَمَانِيَّةُ مَلَيْيَنْ مُسْلِمَةً، وَهَذَا وَاقِعٌ، أَنْ أَصِفَّ لَكُمُ الْوَاقِعَ شَيْئاً، وَأَنْ يَصُدِّرَ مِنِّي حُكْمٌ شَرِعيٌّ شَيْئاً آخَرَ، اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَصَفَ فَرَعَوْنَ فَقَالَ:

﴿يَذِبْحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

[سورة القصص : ٤]

هل يصدق أحدكم أنَّ ذبح الأبناء واستحياء النساء حكم شرعي؟! فالله وصف عدوه، أنا حينما ذكرت هذا التركيز على هذا الذي أسلم، ولعلي أذكر أَنِّي قلت: استقيموا يُستقمَ بكم، ما الذي لفت نظر هذا الإنسان الملحد؟ فتاة محجبة، أما أَنِّي أَفَرَّ أَنْ تذهب فتاة إلى أمريكا وتحصل هذه الشهادة فهذا موضوع آخر، ما ذكرته أنا، ما ذكرته لا نفياً ولا إيجاباً، أنا شعرتُ وأنا أقرأ الرسالة أنَّ هناك أَنَاساً كثيرين يفقرُون إلى منهج البحث في الإسلام، منهج البحث في الإسلام، ذكرتُ هذا مراتٍ كثيرة، ولكن ينبغي أن أذكر بقول الله عز وجل:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[سورة الذاريات : ٥٥]

في القرآن الكريم كم قصة ذكرت عن أهل الكفر؟ فهل إذا ذكر الله في قرآنـه قصة معنى ذلك أنـ أفعال أبطال القصـة حكم شـرعي؟ شيء صـعب التـصديق، أنا ما قـصـدت من قولـي أنا أـقرـ ما فعلـته هذه الفتـاة، وأنـني أـقرـ كـشف وجهـها، وأـقرـ أنـ تـسافـر وحـدهـا هـنـاكـ لأنـ هـنـاكـ بـيـوـت أـصـبـحـت مشـكـلاتـ فيها كـبـيرـة جـداـ، فـلـانـ يـقـولـ: يـجـبـ أنـ نـسـافـرـ، وـأـنـ نـدـرـسـ، وـأـنـ نـتـعـلـمـ، وـأـنـ نـصلـ إـلـى أعلى مرـتبـة عـلـمـيـةـ، ما قـلتـ هـذـا كـلـهـ فـي الـدـرـسـ.

إعلان الخطأ أمام الملا ليس عيباً إنما هو رفع للدرجات :

أوَّلًا: أُعید وَأَكْرِر ما من أحد أصغر من أن ينقد، وما من أحد أكبر من أن يُنقد إِلا رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكل إِنسان يبْتَغِي وجه الله لا بد أن يَتَسَع صدره لِأَقْسَى أنواع النَّقْد، أنا قرأتُ رسالَة، وسأُجَبِّبُ عنها ولكن أن أقول: الْحُكْمُ الشَّرِعيُّ هَذَا، وقلت هَذَا، لك أيَّها الأخ الكريم أَن تترَّجع، أنا ما ذكرت القصَّة إِطْلَاقاً؛ هناك واقع، فلو قلتُ: هناك امرأة ترتدي البنطال، وتَضَعُ على رأسها إِشَارَبَا، إذا ذَكَرْتُ واقعًا؛ هل يعني أَنِّي أَفَرَّ هَذَا؟ هناك فتيات يرتدين البنطال ويَضَعُنَّ على رؤوسهنَّ هذه الإِشَارَبَاتِ، فهل معنى أَنِّي إِذَا ذَكَرْتُ قصَّة فتَاهَ تَعْمَلُ كَذَا أَنِّي أَفَرَّ هَا عَلَى فَعْلَاهَا؟ وَأَنِّي موافق عَلَى فَعْلَاهَا؟ وَأَنَّ هَذَا حَكْمٌ شَرِيعٍ وَيَجِبُ أَنْ نَفْعَلْ فَعْلَاهَا؟ لَأَنَّ الْأَسْتَاذ ذَكَرَ بِالدِّرْسِ أَنَّ فتَاهَ ترتدي بنطالاً وَعَلَى رأسها إِشَارَبَ لم تحرِمْ عَلَيْنَا!! هل هَذَا هُو الاستنباط من الدِّرْسِ؟ مُسْتَحِيلٌ، وَأَنَا وَالله ذَكَرْتُ هَذَا كَثِيرًا، إِذَا كَانَ هُنَاكَ خَطَأً فِي كَلْمَةٍ ذَكَرْتُهَا أَنَا مُسْتَعِدٌ أَنْ أَقُولُهَا عَلَى الْمَلَأِ؛ لَقَدْ أَخْطَأْتُ، لَأَنَّ هَذِهِ الْأَمَانَةَ وَنَرْجُو أَنْ نَكُونَ فِي مُسْتَوْاهَا، أَمَانَةَ التَّبَّيْنِ، هِي مِنْوَطَةُ بِالْعُلَمَاءِ، مَا الَّذِي يَمْنَعُ إِذَا أَخْطَأْ مُدْرِسَ أو إِنْسَانَ يَتَصَدَّرُ الدُّعَوَةَ إِلَى اللهِ، مَا الَّذِي يَمْنَعُ إِنْ أَخْطَأْ يُلْفَتُ نَظَرَهُ إِلَى خَطِئِهِ وَأَنْ يَقُولَ عَلَى الْمَلَأِ: لَقَدْ أَخْطَأْتُ؟ مَا الَّذِي يَمْنَعُ؟ أَنَا ذَكَرْ مُثَلًا لَعَلَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الْمَنَاسِبَةِ، طَبِيبُ بِمَصْرِ عَالِجٌ طَفْلًا صَغِيرًا بِمُسْتَوْصَفِ حُكْمِيِّ، وَصَفَ لَهُ دُوَاءً لِلْكَبَارِ، وَدُوَاءَ الْكَبَارِ يَقْتَلُ الصَّغِيرِ، الْعِيَارُ عَالِ جَدًا، هَذَا الطَّبِيبُ - هَذَا أَنَا أَحْلَلُ الْقَصَّةَ - رأَى نَفْسَهُ قَاتِلًا لِهَذَا الطَّفْلَ، فَاتَّصَلَ بِالإِذَاعَةِ وَالتَّلَفِيُّزِيُّونَ فِي مَصْرَ - لَوْ قَلْتُ تَلَفِيُّزِيُّونَ هَلْ يَعْنِي أَنِّي أَفَرَّهُ؟ مُمْكِنَ أَنْ يَقُولَ عَنِي كَذَا - وَأَبْلَغَهُمْ أَنَّ هُنَاكَ طَفْلًا بِالْمُسْتَوْصَفِ الْفَلَانِي عَالِجَتْهُ أَنِّي أَفَرَّهُ؟ دُوَاءً يَقْتَلُهُ فَيَرْجِحُ قَطْعَ الْبِرَامِجَ، وَإِذَا عَدَهُ هَذَا الطَّفْلَ يَبْلُغُهُ الْخَبَرُ فَلَا يُعْطِي ابْنَهُ الدُّوَاءَ، هُوَ ضَحَى بِسَمْعَتِهِ، وَضَحَى بِمَكَانَتِهِ، وَضَحَى بِأَنْتَنِ شَيْءٍ يَمْلِكُهُ، الْطَّبِيبُ سَمِعَتِهِ، وَلَكِنَّ الَّذِي حَصَلَ أَنَّهُ ارْتَقَى عَنِ النَّاسِ جَمِيعًا، ظَهَرَتْ أَخْلَاقَهُ، وَحَرْصُهُ عَلَى سَلَامَةِ الطَّفْلِ، وَضَحَى بِسَمِعَتِهِ الطَّبِيبَيَّةِ، وَوَضَعَ سَمِعَتِهِ تَحْتَ قَدْمَهُ مِنْ أَجْلِ إِنْقَاذِ هَذَا الطَّفْلِ، فِيَأَيَّهَا الْآخِرَةِ أَرَى أَنَّ الْحَدَّ الْأَدْنِي وَلَيْسَ الْأَعْلَى لِإِخْلَاصِ الدُّعَاءِ إِلَى اللهِ أَنْهُمْ إِذَا رَوَجُوا أَوْ لَفْتُ نَظَرَهُمْ إِلَى شَيْءٍ، وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ الَّذِي يُوجِّهُ هَذِهِ النَّصِيحَةَ عَلَى حَقٍّ يَجِبُ أَنْ يُعلِّنُوا أَمَامَ الْمَلَأِ أَنَّهُمْ أَخْطَوْهُ، وَهَذَا يَرْفَعُهُمْ درَجَاتٍ عَلَى عَنْدَ اللهِ تَعَالَى.

أذكر من عدة سنوات، ذكرت نقطة ثم راجعت نفسي فإذا هي بعيدة عن الصواب، في الدرس التالي وفي أوله قلت: أنا أخطأت في الدرس الماضي وقلت: كذا والصواب كذا، أنا لست معصوماً، فإذا اعتقدت أنني معصوم فقد فسّدت عقيدتي، ولكنني أرجو الله ألا أخطئ، وأنا حريص على عدم الخطأ، والله أحسب نفسي على الكلمة حتى أن الدرس أحياناً يُسجل ويذهب إلى بلاد بعيدة، ويندّاع في الإذاعات، فأنا أجري تعديلاً لكل كلمة ينبغي ألا تكون في الدرس، فهذا الشريط يخضع إلى مراجعة، وإلى حذف حتى يكون الدرس مقبولاً عند الله، وعند الناس.

بِمُجْرِدِ أَنِّي قلت: إِنَّ فَتَاهَ تِرْتِي حِجَابًا وَتَحْمِلُ دَكْتُورَاهُ فِي الرِّياضِيَّاتِ هُلْ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ كُلَّ بَنْتٍ يَجِبُ أَنْ تَثُورَ عَلَى أَبِيهَا؟ وَأَنْ تَحْتَدَ لِهِجَتِهَا؟ وَتَطْلُبُ مِنْ أَبِيهَا أَنْ يُسَمِّحَ لَهَا بِالسَّفَرِ إِلَى أَمْرِيَّكَا كَيْ تَدْرِسَ الرِّياضِيَّاتَ؟ لِأَنَّ الْأَسْتَاذَ رَاتِبَ قَالَ: إِنَّ هَذَا الْمُلْحِدُ سَبَبَ إِسْلَامَهُ أَنَّهُ رَأَى فَتَاهَ مَحْجَبَةَ وَتَحْمِلَ دَكْتُورَاهُ فِي الرِّياضِيَّاتِ، وَلَقُدْسِيَّتِهَا عِنْدَهُ تَهْبِيْبٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِهَا! هُنَاكَ حَقِيقَةُ أَبِيهَا الْأَخْوَةُ، نَحْنُ عَنْدَنَا سَنَّةُ قُولِيَّة، وَسَنَّةُ عَمْلِيَّةٍ أَيْ سِيرَة، أَيَّهُمَا أَصْدَقُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى فَهْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِبَيَانِهِ أَمْ سَلُوكُهُ؟ سَلُوكُهُ، هَذِهِ حَقِيقَةُ فِي أَصْوَلِ الْفَقْهِ، فَأَنَا قَدْ أَقُولُ كَلْمَةً تُفْهَمُ فَهْمًا مَا أَرْدَتُهُ، أَمَا حِينَما أَسْلَكَ سَلُوكًا فِي هَذَا السَّلُوكِ وَحْدَهُ يَقْطَعُ الشَّكَّ بِالْيَقِينِ، سَلُوكِيِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَسَلُوكُ أَهْلِ الْبَيْتِ كُلُّكُمْ تَعْرُفُونَهُ، أَمَا أَنْ تَقْفَ الْبَنْتَ تَثُورَ عَلَى أَبِيهَا كَيْ تَنْذَهَ إِلَى بَلِّدٍ بَعِيدٍ وَتَدْرِسَ لِأَنَّ أَحَدَ الْمُلْحِدِينَ أَسْلَمَ لِمَا رَأَى هَذِهِ الْفَتَاهَ، وَاللهُ هَذِهِ اسْتِبَاطٌ مُضْحِكٌ أَنَا مَا أَرْدَتُهُ، وَالْحَقِيقَةُ أَنِّي هَلْ قَلْتُ إِنَّ الْحُكْمَ الشَّرِعيَّ أَنَّ أَرْسَلَ فَتِيَاتَنَا إِلَى بَلَادِ الْغَرْبِ بِلَا مَحْرَمَ كَيْ يَدْرِسْنَ الْعِلُومَ الْعَالِيَّةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُلْحِدَ الْمُلْحِدُونَ؟ هَلْ قَلْتُ أَنَا هَذَا؟ مُسْتَحِيلٌ أَنْ أَقُولُ هَذَا، لَكِنْ هَلْ تَمْنَعِنِي أَنْ أَذْكُرَ الْوَاقِعَ؟ أَلَيْسَ هَنَاكَ فِي أَمْرِيَّكَا فَتِيَاتٌ مُسْلِمَاتٌ بِنَاتِ الْجَالِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي أَمْرِيَّكَا ثَمَانِيَّةٌ مَلَيْيَنَ، أَمْسَتَغَرِّبُ أَنْ أَنْتَ أَنْ تَعِيشَ فَتَاهَ فِي هَذِهِ الْبَيْئَةِ وَتَتَّبِعَ تَحْصِيلَهَا الْعَالِيَّ؟ صَحٌّ أَمْ غَلَطٌ؟ هَذِهِ مَوْضِعٌ لِتَقْصِيلِ آخَرٍ، فَعَمِلَهَا هَذِهِ صَحٌّ أَوْ خَطَّأً هَذِهِ مَوْضِعَ لِهِ مَكَانٌ آخَرٌ، فِي دَرْسٍ آخَرٍ، أَمَا بِمُجْرِدِ أَنْ أَذْكُرَ أَنَّ فَتَاهَ مَحْجَبَةَ بِمَفْهُومِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَهَذَا لِهِ مَعْنَى آخَرٌ. مَرَّةً تَلَقَّيْتُ سُؤَالًا عَلَى الْهَاتِفِ مِنْ فَتَاهَ تَسْكُنَ فِي بَلَادِ أُورُبِيَّةِ، يَبْدُو أَنَّهَا سَأَلَتْ عَنْ رَقْمِ هَاتِفِي، وَقَالَتْ لِي: ابْنِتِي صَاحِبَةُ دِينِي، وَحَافِظَةُ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَجَاعَتْهَا زِجَاجَةُ حَمْرَةُ هَدِيَّةٍ، هَلْ يَجُوزُ أَنْ تَقْدِمَهَا لِإِنْسَانٍ؟ سُؤَالٌ جَادٌ؛ فَتَاهَ مُسْلِمَةٌ جَاعَتْهَا زِجَاجَةُ حَمْرَةٌ مِنْ أَعْلَى مَسْتَوَى هَدِيَّةٍ أَفَيْجُوزُ أَنْ تَقْدِمَهَا هِيَ هَدِيَّةٌ لِإِنْسَانٍ آخَرٌ؟!! السُّؤَالُ: كَيْفَ قَبَلْتُهَا بِالْأَسْاسِ؟ وَمَنْ هَذَا الَّذِي قَدَّمَهَا لِهَا؟ وَمَا عَلَاقَتِهِ بِهَا؟ لَوْ ذَكَرْتُ هَذِهِ الْقَصَّةَ الْآتَى هَلْ يَفْهُمُ أَنَّهُ يَجُوزُ لِفَتَاهَ أَنْ تَقْبِلَ هَدِيَّةَ حَمْرَةٍ هَذِهِ وَلَهُ فِي خَلْقِهِ شَوْؤُنَ، وَاللهُ يَوْجِدُ شَيْءاً يُحِيرُ الْأَلْبَابَ، فَإِذَا الْوَاحِدُ وَصَفَ وَاقِعاً وَوَصَفَ قَصَّةً وَلَمْ يَقُلِ الْحُكْمُ الشَّرِيعِيُّ كَذَا، أَنَا لَا أَقْصِدُ أَبَداً مِنْ كَلامِي أَنِّي أُبَيِّحُ كَشْفَ الْوَجْهِ، وَأُبَيِّحُ الْاِخْتِلَاطَ، وَأُبَيِّحُ السَّفَرَ بِلَا مَحْرَمَ، وَأُبَيِّحُ تَحْصِيلَ الشَّهَادَاتِ الْعُلِيَّاتِ مِنْ أَجْلِ الْعُلوِّ فِي الْأَرْضِ، لَا، أَنَا مَا قَلْتُ

هذا إطلاقاً، ولستوكي مخالفة لهذا الشيء، أما الآخر فيبدو أنه منزعج جداً، فقال: هناك مشاكل بالأسر حدثت، وحالات صعبة جداً، ثم قال: إنَّ الرجل ليتكلّم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها سبعين خريفاً؛ وصل إلى هذا المستوى ! وأنا والله أشكّره حتى تتعودوا حرية النّقد، لكنَّ على المرء أن يكون منطبقاً فقط.

الاعتماد على منهج البحث في الدين :

تعلّموا منهج البحث، منهج البحث في الدين، نحن أوّلاً عندنا القرآن الكريم، هذا كلام الله، علاقتي به فقط أن أفهم لأنَّ قطعياً الثبوت، ليس لي مهمّة إلا أن أفهم كلام الله وفق علم الأصول، لا أقول فهماً مزاجياً، فهماً إشارياً! وأجرَ النّص إلى ما أريد، الّوي عنق النّصّ كي يغطي عقيدة اعتقادها، أكبر خطأ في العالم الإسلامي الآن أن نعتقد أوّلاً ثم نبحث عن الدليل ثانياً! النّصّ أوّلاً ومنه نأخذ اعتقادنا، النّصّ هو القرآن طبعاً، والحديث الصحيح، فنحن عندنا قرآن، هل في القرآن الكريم شيءٌ يخالف هذا الذي قلته؟ الله تعالى وصف أهل الدنيا، مرّةً عالمٌ من علماء دمشق بندوةٍ قال كلمة، فيما ذكر قال: أنا مع الحق، وإن كان الحق إنكار وجود الله عز وجل!!! طبعاً حدثت ثورة، واعتراضات، وكان ردّه -استمعوا إلى ردّه- : قال هذا افتراض، والافتراض ورد بالقرآن الكريم ؟ أين ورد الافتراض؟ قال تعالى:

﴿فَإِنْ كَانَ لِرَحْمَنَ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾

[سورة الزخرف : ٨١]

هل الله تعالى ولد؟ لا، افتراض فقط، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

[سورة المؤمنون : ١١٧]

وما هذا إلا افتراض، لو أنك وجدت برهاناً على إله آخر، متى يحاسب الله عز وجل؟ قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

[سورة المؤمنون : ١١٧]

هناك معنى مخالف؛ لو أدعى إله آخر مع برهان لا يحاسب؛ هذا افتراض، وهو منهج قرآني. مرّةً إنسان اعترض وكان بمؤتمر، وألقى كلمة، وخطاب رئيس المؤتمر بكلمة فيها تعظيم كبير، ويبدو أنَّ رئيس المؤتمر ليس كذلك فجاءه نقدٌ شديد فقال: حينما أرسل النبي كتاباً إلى عظيم الروم؛ فهل كان عظيماً عند النبي؟ هذا لقب، أنت تخطاب إنساناً يحمل رتبة، وإنساناً يحمل دكتوراه. لو فرضنا أنه مبتدئ، وقلت له: دكتور فهل أنت أخطأت؟ هذا لقب علمي لا يعني شيئاً. أنا لاحظ أنَّ الإنسان عندما يكون بعيداً عن منهج البحث الإسلامي ينتقد انتقادات غير مبررة، طبعاً هناك استيباطات غير صحيحة، فلو وجدت إنساناً يقف إلى جانب عمود، وكان هذا الإنسان طويلاً، وبعد يوم وجدت إنساناً يقف جانب هذا العمود نفسه فهل يعني أنَّه طويل؟ لا، هذا

استبطاط فاسد، النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وقف أمامه حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وتغزل بامرأة، فهل هذا موقف شرعي مثلاً؟ تقليد في الشعر الجاهلي قالها:
بانت السعاد فقلبياليوم متبول مُتيمٌ إثرها لم يفْد مكبور

هذا تقليد شعري، فهناك موافق لا بد لها من مرؤنة قليلاً، أنا لا أقى درساً في حكم سفر المرأة إلى بلاد الغرب، ولا يحكم أن تطلب أعلى الشهادات، ولا يحكم أن تكشف وجهها، ما ذكرت إطلاقاً في القصة، والتركيز ليس على المرأة هذه المحببة، التركيز على هذا الذي كان ملحداً فأسلم، هذا التركيز، وحينما يُسلِّمُ الإنسان تحسَّ أنَّ بينك وبينه جسوراً، وكأنَّك أقرب الناس إليه، هذا الذي حدث.

على الإنسان توطين نفسه أنه ليس معصوماً عن الخطأ :

على كلّ أتنى أن يُفتح باب النّقد على مصراعيه، إذا كان هناك خطأ أو توجيه له مضاعفات ما كنتُ أنظر إليها، أو ما انتبهتُ إليها، ونبهني أحدكم أكن له من الشاكرين. مرّة آخر من الإخوان بجامع العثمان أنا ذكرتُ نصاً، ما قلتُ: قال عليه الصلاة والسلام أبداً، والشريط موجود، فهناك آخر أرسل لي ورقة أنَّ هذا الحديث ضعيف، أنا قلتُ: أرجو أن التقي بصاحب هذه الورقة، التقيتُ معه وهو إنسانٌ فاضل وأحبه حباً جماً، قلتُ له: الشريط موجود، فهل قلتُ: قال عليه الصلاة والسلام؟ فقال: ما انتبهتُ! أو قال لي: لا أذكر! أنا منتبه لهذه النقطة، حكمة، الآن لو قلتُ: أحبووا الله لما يغدوكم من نعمه، ما قلتُ قال: وما قلت قيل، وما قلت ورد، وما حكيت شيئاً، إذا قلتُ: أحبووا الله لما يغدوكم من نعمه، ماذا فعلنا؟ الشاهد أنه بعدما انتهى الدرس والتقيتُ به، قلتُ له: أشكرك على هذه الملاحظة، وأنا منتبه لمالحظتك، ولم أقل إنَّه حديث إطلاقاً، وأطلب منك أن تستمر في ذلك، فشجعتُه، وأوصلته إلى بيته بالسيارة مكافأة له على هذه الملاحظة، وأنا إن شاء الله تعالى أعاهد الله على أن أتلقى أيَّ نقدٍ، أو أيَّ ملاحظة بأذنٍ صاغية، وعقلٍ يقظ، وصبرٍ واسع، إن شاء الله، ولا أحد يتهمُ، ولا أحد لا يخطئ، وقد أخطأ، أنت وطنَ نفسكَ أنتِ أخطأي، حينها تتعامل معِي في الحياة تعاملًا صحيحاً، فلستُ معصوماً، أما إذا وطنتَ نفسكَ أنتِ لا أغلط نفع بإشكال كبير، المعصوم هو رسول الله، ولكن القاعدة أنَّ النبي معصوم أما المؤمن فمحفوظ، النبي لا يخطئ، لكنَّ المؤمن حريص على ألا يخطئ، وإذا أخطأ يستغفر ويراجع نفسه.

الغرور أكبر مرض يصيب أي إنسان ناجح بالحياة :

يوجد بالسيرة أشباء كثيرة لا ننتبه إليها، الوحي نزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، في مواطن كثيرة جدًا، وقد جاء وفده إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وطلبوه منه سبعين قارئاً ليعلموا قومه، وفي الطريق ذبحوه عن آخرهم، كيف لم يعلم النبي عليه الصلاة والسلام؟ ولماذا أراد الله عز وجل أن يقع هذا الأمر؟ طبعاً هم ماتوا بآجالهم، ولا إشكال في هذا، ولكن لماذا وقع هذا الأمر؟ هذا درس لأمته إلى يوم القيمة أن أحداً من المخلوقات، أن أحداً من بنى البشر لا يعلم من ذاته إلا أن يعلمه الله، وهذه قاعدة.

في موقعة بدر صلى الله عليه وسلم اختار موقعاً، ويبدو أنه غير مناسب، ولكن حكمة الله شاعت أن تحجب عنه الموقع المناسب؛ حجبه عنه وحياً، وحجبه عنه إلهاماً، وحجبه عنه اجتهاداً، لا وهي ولا إلهام ولا اجتهاد فجاء صحابي يكاد يذوب محبة لرسول الله، ويكاد يذوب أدباً معه، قال له: يا رسول الله هل هذا وحيٌ أوحاه الله إليك - إذا كان كذلك لن أتكلم بأي كلمة - أم هو الرأي والمتشورة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هو الرأي والمتشورة انظر إلى أدب هذا الصحابي، فقال: يا رسول الله هذا ليس بموضع، إنه يخاطبنبياً، ويخاطب رسولاً، ويُخاطب سيد الخلق، أرأيت إلى غيره هذا الصحابي؟ ماذا فعل النبي؟ وبخه؟ لا، عنفه؟ لا، أعرض عنه؟ لا، أهمله؟ لا، طعنه؟ لا، فقال: هذا هو الصواب، وأعطي أمراً للانتقال إلى الموضع الثاني ، ماذا يعلمنا موقف النبي عليه الصلاة والسلام؟ يعلمنا أن نصغي إلى كل من ينتقد، والإنسان إذا لم يُصنِّع إلى من لا ينتقده ينتهي، ويسقط، أكبر مرض يصيب أي إنسان ناجح بالحياة هو الغرور، هذا الغرور يصل أي إنسان إلى الحضيض، حتى وصلوا إلى ما هم فيه بذلوا جهداً لا يوصف، لكن حينما اغترروا وهم فوق أصبحوا في الحضيض.

التعليم خير من التعنيف :

هناك نقطة أمنناها على كل أحٍ كريم، وهي ليست واضحة، ونقطة غامضة، وفكرة ذكرتها يظنها هو خطأ، ما الذي يمنع أن يلتقى بي شخصياً ومن دون ورقة؟ ما الذي يمنع؟ أناقشه وأعطيه وجهة نظري؛ إما أن يقنعني وإما أن أقنعه، قال تعالى:

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

[سورة سباء : ٢٤]

النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وضع نفسه أقل إنسان في الأرض قال تعالى:

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

[سورة سباء : ٢٤]

لأنَّ الورق أحياناً لا يُعتبر، والورق ليس فيه جواب، وأنا لستُ مضطراً لكلَّ سؤال أجعل له جواباً عاماً، فقد لا يكون من الحكمة أن أردَّ على سؤال بدرسِ عام، وأنا الموضوع أردتُ أن يكون في درس عام لأنَّه ذكر أشياء غير معقوله إطلاقاً، نساءٌ كِنْدَنْ أن يُطلقنَ من أزواجهنَ! ويشرَّد الأولاد!! وكادت أن تقع جريمة قتل!!! مبالغات ما أنزل الله بها من سلطان، أنا أتمنّى وأقول: إنَّ أيَّ إنسان أراد أن ينتقد والله سأشكره وسأたطلُّف معه، وسأقول له: جزاك الله خيراً، ولو لا الدليل لقال من شاء ما شاء، قلْ لي ما وجهت نظرك في هذا الموضوع؛ هذه الآية والأحاديث، وهذه أقوال الصحابة فلما أن تُقْرَنْتَني وإما أنْ أُقْرَنْكَ، أما أن ترسِّلَ ورقَةً، وتقسُّو بها قسوةً بالغة، وتُكَبِّرُ الأمر إلى درجة لا يستحقُها، أنت في أيِّ مجلس تذكر الواقع؛ إذا قلت: هناك بالطريق جهل، فهل الجهل ضروري للناس؟ شيءٌ بديهي، من قال لك: استُنْتِطِ هذا؟ لكن كلَّ بلد له ظروفه، فإذا كان هناك فتاة مسلمة، ولدت هناك، ولها أب من الجالية الإسلامية، وهناك الجوُّ العلمي بديهي، ووصلت إلى أعلى درجة، واصطبَّحت هي بطريقة تفهمها، وقابلت أستاذها في الجامعة، هل معنى ذلك أنَّ كلَّ فتاة تذهب لهذه البلاد وتدرس الشهادات؟ من قال لك ذلك؟ أنا أتمنّى على الآباء أن يُعلموا بناتهنَّ لا أن يُقْمِعوهنَّ، فالتعليم يصنع موقفاً ذاتياً، أما القمع فيصنع قهراً، وكبتاً، وتغلقاً معاكساً عنيفاً جداً، أنا أذكر أباً أظنه صالحًا ولا أزكي على الله أحداً، ربِّي بناته على القمع الشديد، كلَّ شيء حرام، النتيجة لما مات خرجت بناته بثيابٍ فاضحةً! لو لا أنَّ الله تعالى تدارك هؤلاء البنات وأرسل لهن شباباً مؤمنين تتزوجوهم إكراماً لوالدهم لكنَّ الأمر كبيراً جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف))

[أخرجه السيوطي عن أبي هريرة]

مجلس العلم لا يتحمل الخطأ ولا السكوت عنه :

أَلْخَصُ هذا الدرس فأقول: أنا غير معصوم، وهذه عقيدتنا، عقيدة التي نعتَّرُ بها، نعتقد أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلم معصومٌ وحده، وأنَّ أمته معصومةٌ بِمجموعها، وأنَّ كلَّ إنسان يؤخذ منه ويردُّ عليه إلا صاحب هذه القبة الخضراء، وأنا أقول لكم وهو كلام صريح واضح: أنا أتفقُّ أيَّ ملاحظة، وأيَّ انتقاد، وأيَّ لفت نظر، وأيَّ تعليق، وأيَّ توجيه من أقلَّ الإخوان شأنًا فيما يبدو للناس، وقد يكونون عند الله أكبر شأنًا؛ من طفل صغير، قال الإمام أبو حنيفة لطِفل صغير أمامه حفرة: إِيَّاكَ يا غلامَ أن تسقط، فقال له الطفل: بل إِيَّاكَ يا إمامَ أن تسقط، إِنِّي إن سقطتُ سقطتُ وحدي، وإنِّي إن سقطتُ سقطتُ معكَ العالم، وهذه هي الحقيقة، هذا جامع، وهذا دين الله، وهو واضح، والحق لا يحتاج أن تكذب له، ولا أن تكذب عليه، ولا أن تُجامل، ولا أن تُبالغ، ولا أن تُقلِّل، والحق لا يخشى البحث، ولا توجد علاقة بيننا إلا علاقة العلم، ولا توجد علاقات ماديَّة، والحمد لله تعالى، ولا توجد مصلحة، وإنَّما علاقات لوجه الله كلَّها، فمجلس العلم لا يتحمل الخطأ،

و لا السكوت عن الخطأ، لا تسكتوا عن الخطأ، هذا علم، إذا كان هناك تجمّع مَصلحي نسكت، إذا كانت الموارد تأتينا ضخمة نسكت وألف نسكت، لكن لا يوجد شيء، كأس شاي لا يوجد، فقط طلب العلم، لذلك طلب العلم يحتاج إلى وضوح وصراحة وأنا يمكن كل الإخوان يعلمون هذا أنتي ما قسّوتُ على إنسانٍ انتقد بالكلام، ولكن أقول: جزاك الله خيراً، وفيما ذكر لا يوجد من وجهه لي ملاحظة على الإطلاق إلا قلت له: جزاك الله خيراً إن شاء الله سأخذ باللحظة، فباب النقد مفتوح على مصراعيه، أبد أي وجهة نظر، وأي تعليق، والفت نظري لأي شيء، فإنما أن تقْعُنِي وإنما أن أُفْعِنَكَ، أما أن تستبط من كلامي، فهذا غير معقول، تستبط استبطات، وتعمل تهويات، وتبني عليها انهيار أسر، وجرائم قتل، وهذا شيء ما أنزل الله به من سلطان، ومبالغة كبيرة جداً، وليس هذا هو المنهج العلمي، المنهج العلمي أن أقول: هناك إنسانة ترتدي بنطالاً وتضع على رأسها إشارياً، فهل قولي هذا يُقرّ ما تفعل؟! مستحبيل هذا الكلام، إنسانة بأمريكا وجهها مكشوف، وهذا الذي أسلم تهيب أن يُحدِّق في وجهها، هل معنى ذلك أن الوجه يجب أن يُكشف؟ هذا كلام غير معقول للاستبطاط.

أحدهم قال للآخر: سأنصحك وسأغاظرك! فقال: ولم الغلطة يا أخي؟ لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شرّ مني، أرسل موسى إلى فرعون، قال تعالى:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيَنَا لَعْلَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾

[سورة طه : ٤٤]

تكلّم كلاماً لطيفاً، حتى لو أردت أن تنتقد هناك انتقاد لطيف، وانتقاد يُنمّي المشاعر، وهناك انتقاد يجعل الودّ بين الأخوة الكرام.

ثم يقول في آخر هذه الرسالة: وأسأل الله أن تكون هذه الرسالة خالصة لوجه الله عز وجل، وقد تكون كذلك، وقد يكون هذا المنتقد يبتغي وجه الله فقط، وأنا كذلك قبلتها، وجعلتها درساً، وهو طلب مني ذلك؛ يجب أن توضّح موقفك من هذه القصة، وها أنا وضّحت موقفي، فأنا لا أقرّ ما ذكرتُ، وأنا ذكرت شيئاً وقع، وليس كلّ ما وقع أقرّه، الوصف شيء، والنقييم شيء آخر، أنا كنت أصف ولا أقيّم، وهذا مبدأ أساسي.

والحمد لله رب العالمين